مساهمه الاثنواركيولوجي في الدراسات النبتيه في السودان

د.فائز حسن•

ملخص البحث :

إن الاستمرارية الثقافية في أوجه الحياة اليومية في المجتمع السوداني ، وأساليب الحياة وأنماطها الضاربة الجذور في القدم يمكن ملاحظتها بسهولة، وبتوافر خلفية معرفية عن الحضارات و المجتمعات القديمة يمكن للآثاري بسهولة إيجاد مقارنة بين الماضي و الحاضر لكن قليل جداً من الآثاريين العاملين في السودان انتبهوا لذلك .

تتناول هذه الورقة دور الدراسات الإثنوأثرية في حل بعض المعضلات الآثارية و المشاكل البحثية المتعلقة بحضارة نبتة في السودان .

Abstract

Cultural continuity and subsistence patterns of life within Sudanese community, could easily noticed. According to the knowledge of the society, archaeologists can compare between past and present, which is rare in Sudan archaeology.

This research deal with how Ethno archaeology can help in solving some archaeological problems, specially Napatan civilization.

1/ الإثنوآركيولوجيا بداياتها وتعريفاتها:-

كما هو معروف تعتمد دراسة المواد الأثرية بصورة خاصة على التشابهات و المقارنات Analogy ، التي تستخدم في تصنيف المواد الأثرية ووضعها في إطاريها الزماني و المكاني في السياق العام للحضارات القديمة ، وهو ما يعرف بالتفسير الآثاري Archaeological Interpretation ، ويعتمد الآثاريون في تفسير السجل الآثاري على معرفتهم الدقيقة التي تشمل كل ما قرأوه ورأوه و سمعوا به عن المواد و المجتمعات المراد دراستها.

كانت الفكرة العامة لاستخدام الإثنوغرافيا في علم الآثار تنحصر في مفهوم أنه إذا عمل الباحث الآثاري في موقع كان للمجتمع المحلي حوله ثقافة قديمة حية متواصلة في نفس السياق الاقتصادي و البيئي القديم ، وأن الثقافة المعاصرة مشتقة أو منحدرة من الثقافة القديمة ، فإن دراسة المجتمع الحالي وثقافته المادية يمكن أن تعطي نتائج باهرة في تفسير الظواهر و المعطيات الآثارية في الموقع ، إذ أن في دراسة وملاحظة السكان الحاليين تقليل للجهد الذي يبذله الآثاري في تفسير المواد الأثرية .

• محاضر بجامعة وادى النيل – السودان.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن هناك ست مجالات رئيسية للإثنوآركيولوج[١]، هذه المجالات هي بمثابة الإطار العام الذي يضبط حركة وأهداف الأبحاث الإثنوأركيولوجية وهي

١/ دراسة التحولات الثقافية و الطبيعية.
٢ / دراسة عناصر محددة من الثقافة المادية.
٣/ دراسة أنماط السلوك الثقافي وبقاياه المادية.
٤/ دراسة الثقافة المادية وعلاقتها بالتنظيم الاجتماعي.
٥/ دراسة العلاقة بين الهوية والثقافة المادية والحدود العرقية و اللغوية والقبلية.
٦/ تأسيس الفرضيات العلمية القابلة للاختبار مثل ما إن كانت بعض الظروف أو الظواهر المعروفة حالياً موجودة في مجتمع قديم.

أن هناك نوعين من الأبحاث الإثنوآركيولوجية الميدانية[٢] ، النوع الأول هو الأبحاث التي يجريها الآثاريون أثناء حفرياتهم في موقع ما ، في أيام محددة من جدول العمل أو في عطلات نهاية الأسبوع ، والهدف الأساسي من هذا النوع من الأبحاث تكملة السجل الآثاري بحل مشكلة بحثية صغيرة ، ويجرى عن طريق تصميم مشروع بحثي متعدد الخطوات ينفذ خطوة تلو الأخرى حتى نهاية برنامج البحث . في مثل هذا النوع من المشاريع عادة تستقى المعلومات من رواة هم في الغالب من السكان المحليين الذين يعملون عمال في الحفريات، بجانب ملاحظة السلوك البشري في المنطقة المحيطة بموقع الحفريات للاستفادة منها في تفسير المشكلة البحثية.

النوع الثاني هو ما يعرف بالأبحاث الإثنوآركيولوجية الميدانية المنتظمة وعادة يكون صالحاً للاستخدام في حل المشاكل البحثية الكبيرة أو في حالة فشل النوع الأول في حل المشاكل البحثية،أو إذا رأى الباحثون أنهم يحتاجون إلى مجهود مضاعف،فيتم تصميم برنامج أبحاث إثنوآركيولوجي منتظم يجرى في وقت آخر غير وقت الحفريات الآثارية،حتى يكون الباحثون متفرغون تماماً.وهنا لابد أن يدرك الباحثون أن النشاطات البشرية في منطقة الدراسة تختلف باختلاف مواسم السنة .

٢/ الدراسات الإثنوأركيولوجية في السودان :-

إن الاستمرارية الثقافية في أوجه الحياة اليومية في المجتمع السوداني ، وأساليب الحياة وأنماطها الضاربة الجذور في القدم يمكن ملاحظتها بسهولة، وبتوافر خلفية معرفية عن الحضارات و المجتمعات القديمة يمكن للآثاري بسهولة إيجاد مقارنة بين الماضي و الحاضر لكن قليل جداً من الآثاريين العاملين في السودان انتبهوا لذلك إن صفة

1 Kendall,T. Ethnoarchaeology in Meroitic Studies . Rome. 1984.
2 David.N &Kramer,C. Ethnoarchaeology in Action. Cambridge.2001

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاستمرارية الثقافية لا تنطبق فقط على المجتمعات السودانية المعاصرة، وإنما أيضاً خلال الفترات القديمة كانت هذه الصفة موجودة.

إن أول آثاري أجرى دراسة إثنوأركيولوجية في السودان هو جورج رايزنر عام ١٩١٣م ، أثناء حفرياته في كرمة ، حيث لاحظ التشابه الكبير بين فخار حضارة كرمة الأحمر المصقول ذو الفوهة السوداء ، وبين فخار كرمة المحلى المصنوع باليد ذو الفوهة السوداء أيضاً ، والذي كان يصنع أثناء حفرياته في ١٩١٣-١٩١٦م ، فاستأجر امرأة من كرمة تعمل في صناعة الفخار وطلب منها أن تصنع له قطعاً فخارية أمامه ، وقد تفاجأ بأن التقنيات القديمة لصناعة الفخار في فترة حضارة كرمة (٢٥٠٠-١٥٠٠ ق.م)، ما زالت مستخدمة وشائعة حتى وقت إجراء الحفريات في كرمة في الفترة من ١٩١٣-١٩١٦م ، إلا أن دراسته لم تر النور إلا في العام ١٩٦٦م لعدة أسباب منها أنه استغرق وقتاً طويلاً في دراسة المواد التي تحصل عليها من الحفريات، ثم اندلاع الحرب العالمية ، وأخيراً وفاته ، فقامت زوجته بنشرها لاحقاً[٣] .

منذ قديم الأزمان وحتى منتصف القرن الماضي ، ظل سكان السودان بعيدين عن المتغيرات الثقافية و الثورة الصناعية التي اجتاحت العالم منذ ثلاثة قرون خلت ، حيث كانوا يعيشون نمط حياة هو نفسه الذي كان يعيشه أسلافهم صانعي الحضارات القديمة في المنطقة ، وخلال تلك الفترة أيضاً كانت علاقات السودان الخارجية محدودة ومنحصرة نوعاً ما في التبادل التجاري الخفيف الذي لم يرق لمستوى تبادل الثقافات وانتشارها . عامل آخر في غاية الأهمية هو أن مناخ وبيئة إقليم النيل الأوسط قاسية على من هم من خارجها .هذا مع عدم وجود الطرق المعبدة التي تربط السودان مع بعضه البعض أو مع جيرانه القريبين ، كل هذه العوامل السابقة الذكر أدت إلى أن يكون السودان من أكثر الدول محافظة على الثقافات القديمة ، ونفس هذه العوامل أيضاً ساعدت في أن يكون السودان متعدد السحنات و الأعراق و اللهجات على مر التاريخ وليس الآن فقط .

٣/ حضارة نبتة:-

بحلول فترة القرن الثامن ق.م ظهرت قوة سياسية جديدة في منطقة سهل دنقلا عرفت باسم مملكة كوش ، وكان مركزها الرئيس إقليم نبتة الذي يقع أعلي سهل دنقلا وأسفل الشلال الرابع ، وهذه المملكة اتسع نفوذها و سلطتها السياسية ليس فقط في منطقة سهل دنقلا و المناطق التي تقع إلى الشمال منه ، بل أيضاً امتد حتى مناطق وسط السودان ، كما أن ملوكها الذين تعتبر أصولهم غامضة بعض الشيء استطاعوا في فترة لاحقة أن يسيطروا على معظم أراضي مصر المجاورة لهم من الشمال ،

3 Reisner,G.A. " Black Topped Pottery ". JARCE_5 pp.7-10. 1966

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحكموها فيما يعرف باسم الأسرة XXV وامتدت فترة احتلالهم لها لما يقرب من القرن من الزمان ، منذ منتصف القرن الثامن ق.م وحتى منتصف القرن السابع ق.م عندما طردهم الآشوريون منها ، ويعتبر الحدثين من أعظم الأحداث التي مرت بوادي النيل قديماً[٤]. وخلال فترة احتلالهم لمصر احتكوا بالثقافة الفرعونية وأخذوا منها العديد من الأنماط التي عاشت مع الثقافة النوبية في تجانس تام.

إن تاريخ مملكة كوش ينقسم إلى فترتين رئيسيتين هما الفترة النبتية و الفترة المروية ، و السبب الرئيسي في هذه المسميات أن المملكة بدأت أولاً في إقليم نبتة ثم انتقل الدفن الملكي والعاصمة السياسية إلى مروي جنوباً ، مما حدا بهذا الانتقال ليكون الفاصل بين الفترتين. وهذا الانتقال لم يكن سياسياً فقط وإنما صاحبه أيضاً انتقال ثقافي كامل وتحول شبه كامل نحو الثقافة الأفريقية ، هذا على الرغم من أن مدينة مروي نفسها كانت مركزاً هاماً خلال الفترة النبتية ، ويعتقد بعض الآثاريين أنه ليس هناك انتقال وأن مروي كانت منذ البداية العاصمة السياسية بينما نبتة هي العاصمة الدينية للمملكة [٥]، إلا أن الاختلافات و التغييرات الثقافية بين الفترتين تجعل من الصعوبة بمكان تجاوز الانتقال.

على الرغم من وجود عدد معتبر من النصوص المكتوبة التي ترجع لفترة مملكة كوش ، إلا أن معرفتنا بها ما زالت ضئيلة نوعاً ما ، خاصة بالفترة النبتية التي ما تزال بها العديد من الفترات الغامضة . آثارياً فإن معظم معلوماتنا أتت من أعمال رايزنر الذي نقب في الجبانات الملكية لهذه الفترة ووضع التسلسل التاريخي ووراثة العرش ، بالإضافة إلى بعض الحفريات في مواقع أخرى، ومع أن هذا العمل الذي قام به رايزنر هو الأول و الرائد،إلا أنه يعتبر إطاراً خارجياً يحتاج إلى المزيد من الدراسات المتأنية لتكشف لنا عما بداخل هذا الإطار .

إن المصادر التاريخية المكتوبة لم تفصح عن تفاصيل حضارة نبتة ، كما أن المواد الأثرية لم تستطع تعطيناأن تمدنا بالكثير ، وما تزال معرفتنا بسهل دنقلا عقب انهيار السلطة المركزية في عهد احتلال المملكة المصرية الحديثة محدودة جداً.وقد احتوى هذا الإقليم على أهم مواقع الاستيطان النبتي وكذلك المركز الديني الرئيسي لها عند جبل البركل ، وجبانتين ملكيتين في الكرو ونوري ، بالنسبة للكرو فهي لم تكن جبانة فقط ، فهي أيضاً مدينة مأهولة بالسكان ، حيث عثر علي بقايا مباني أسفل الجبانة بمحاذاة النيل.

4 Edwards,D.N. The Nubian Past: An Archaeology of the Sudan .London. 2004.
5 Hakem,A.M.A. Meroitic Architecture : A background of an African civilization. Khartoum. 1988.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٤/ مكان ميلاد الملك الارا دراسة حالة:

لقد أجرينا دراسة إثنوأثرية تتعلق بمكان ميلاد الملك ألارا الذي عرف بأنه مؤسس الأسرة الملكية النبتية الحاكمة،ولقد أشارت مسلة تتويج الملك نستاسن المعروفة باسم مسلة نستاسن للسنة الثامنة من حكمه،التي عثر عليها في دنقلا في عام١٨٥٣م إلى مكان ميلاد الارا، والمسلة موجودة الآن في متحف برلين للمصريات،تحت الرقم٢٢٦٨، ويبلغ طولها١,٦٣متر وعرضها١,٢٧متر وسمكها٠,٢٩٨متر،ويتحدث النص بصورة عامة عن اختيار الإله آمون لنستاسن كملك لكوش ومراسيم رحلة تتويج،بالإضافة إلى الانتصارات العسكرية التي حققها الملك ضد أعدائه،إلا أن الجزء الذي يهمنا في هذا النص هو الجزء المتعلق برحلة التتويج ومرورها بالمنطقة التي ولد فيها ألارا مؤسس الأسرة.

يتحدث الملك عن رحلة تتويجه التي بدأت من مروي مروراً بمنطقة I-s-d-r-s-t ومنطقة trt والتي يصفها قائلا:

" وصلت t3rt المكان العظيم، الجنة التي ولد فيها الملك العظيم الارا وعندما وصلت إلى هذا المكان(.....) هذا منزل الإله آمون، أتى إلى كل كهنة معبد أمون نبتة .... وأمرتهم أن يعبروا النهر ووصلوا تمجيداً لي ولأبي أمون نبته وعبرت النيل بواسطة مركب أعدت لي خصيصًا إلى منزل رع وخرجت من المركب وامتطت صهوة جواد عظيم"[٦]

نستنتج من النص أعلاه أن هناك منطقة في وسط الطريق بين نبته ومروي هي d-r-st-l-s والتي تقع في حافة صحراء بيوضة، وفي نهاية الطريق عند التقائه بالنيل توجد منطقة trt والتي ولد فيها" الارا" وتقع على الضفة اليسرى للنيل ، وبها ما يعرف بمنزل آمون، وهي أيضا نقطة لعبور النيل بالضفة اليمنى التي توجد بها نبته" جبل البركل" ، بمعنى آخر إن منطقة trt هذه إما صنم ابي دوم أو منطقة أخرى مجاورة لها، مع العلم أن صنم أبي دوم لم تؤسس إلا في عهد تهاركا.

إن السؤال الذي يطرح نفسه هو اين تقع trt هذه اليوم؟. وهل ذكرت بهذا الاسم في أي نص آخر؟. بتفحص المصادر المكتوبة نجد أن الملك حارسيوتف ذكر trt هذه في مسلته المعروفة باسم حوليه حارسيوتف للسنة الخامسة والثلاثين من حكمه، التي عثر عليها في معبد آمون الكبير B.500 والموجود حالياً بالمتحف المصري بالقاهرة ، ويذكر فيها أنه بعد زيارته لكل من نبته، الكوه ، تبو قام بزارة إلى trt ويقول (Eide,et.al:)[٧]

"ثم ذهب إلى باستيت في trt وتحدثت عما قاله آمون بنبته" .

6 Eide,T.et.al. Fontes Historiae Nubiorum Vol. II. Bergen 1996:476-477

7 (Eide,et.al. ibid 438-456

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن الوصف الذي أعطاه "حارستيوتيف" يختلف قليلاً عن ما ورد عند "نستاسن" ، إذ لم يذكر الأخير قداس باستيت هذا ومن المحتمل قد يكون قد أنشئ في فترة لاحقة ، كما أن حارستيوتيف ذكر المنطقة على أنها آخر محطة في رحلته هذه ، وهذا يتوافق مع برنامج رحلته للتتوج والذي ينتهي في صنم أبي دوم، إذن أين تقع trt هذه؟ وهل هي قائمة الآن؟ أو هل استطاع أي من الآثاريين القدامى والمحدثين بالتعرف على هذه المنطقة باعتبارها مكان أصل الأسرة الحاكمة وموطن انحدارها، وهذا بدوره يمكن أن يقود إلى حقائق هامة حول وصول حضارة نبته.

لقد أوضح توروك أن trt هذه هي أم رويم التي تقع في قلب صحراء بيوضة[٨] لكن نجد أن الأوصاف التي ذكرت في مسلة نستاسن لا تنطبق على هذه المنطقة ، فأم رويم هذه تقع في صحراء بيوضة وtrt تقع على ضفة النيل اليسرى قبالة نبته ومنها يعبر النيل إلى نبته ، كما أن أم رويم لم توجد فيها آثار نبتة، بل مروية[٩] .

من خلال تواجدنا في مدينة كريمة لخمسة سنوات أثناء الدراسة الجامعية ومن خلال الأعمال الميدانية التي شاركنا فيها في الشلال الرابع ومنطقة جبل البركل ، توفرت لدينا العديد من المعلومات عن المنطقة،وكان نتيجة ذلك أن عرفنا قرية صغيرة تقع إلى الشمال من صنم أبي دوم مباشرة لها ثلاثة أسماء هي: ألار،الرجيلة، وديم ود حاج.

إن أول ما استوقفنا لماذا هذه الثلاثة أسماء لهذه المنطقة ومن أين أتت؟ ومن المعروف الشيخ عبد الرحمن ود حاج الذي استوطن هذه القرية منذ فترة الفونج وله قبة بالقرية وله مسجد وخلوة جميعها قائمة حتى الآن ، أما الاسم الثاني للرجيلة نتيجة للفرع الصغير من وادي أبي دوم الذي يمر بمنتصف القرية إذ يسمى العرب مثل هذه النوع الصغير من الوادي باسم الرجيلة، أما الاسم الثالث ألار هو غير واضح المعنى ، وسألنا معظم سكان القرية عن اسم ألار وأجابوا بعدم معرفتهم له ، ومن الواضح أن ألار كلمة نوبية على الأقل نوبية محرفة ، وبالتالي يتضح أن أقدم هذه الأسماء الثلاثة لهذا المنطقة هو الاسم الثالث ألار ، تقع ألار على سهل منبسط على النيل، (خريطة رقم ١،٢) ولا يفصلها عن صنم أبي دوم سوى أراضي خالية تمتد حوالي ٢ كيلو، وإدارياً تتبع لمدينة مروي الحديثة، ويحدها النيل الذي يجري من الاتجاه الشمالي الشرقي إلى الاتجاه الجنوبي الغربي من الشرق صحراء بيوضة التي يأتي منها الفرع الصغير من وادي ابي دوم والذي يحاذيه الطريق الصحراوي إلى دير الغزالي ومنه إلى مناطق الدامر وشندي ومروي القديمة ، و تمتاز قرية ألار بارتفاع ضفاف النيل حولها وهذا له دور كبير حتى وقت قريب عندما يكون فيضان النيل عالياً، يتعذر

8 Török,L. The Birth of an Ancient African Kingdom: Kush And Her Myth of the State in the First Millennium B.C. Lille.1995. :70

9 Edwards. Op.cit.120

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عبور النيل إلا من ألار، فهي النقطة الوحيدة الصالحة لعبور النيل في الفيضان العالي، ولقد لاحظنا ذلك في فيضاني عام ١٩٩٤- ١٩٩٨م، وهذا يطابق ما ذكره نستانس في مسلته الصغيرة السابقة الذكر، خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار أن منسوب النيل قديماً في فترة نبته كان عالياً جداً ، تماماً كما منسوبه في حالة الفيضان العالي، كما دلت على ذلك مسلة تهاركا في الكوة .

إن المنطقة أسفل الشلال الرابع وحتى دنقلا العجوز كانت مقطونة بواسطة القبائل النوبية ، وقبل سقوط دنقلا العجوز عام ١٣٢٣ بدأت القبائل العربية المهاجرة في الاستقرار في هذه المنطقة، وانصهرت وتعايشت مع القبائل النوبية الموجودة أصلاً في المنطقة ونتيجة لهذا الانصهار برزت القبائل النوبية المستعربة في هذا الاقليم[١٠] مثل الشايقية والبديرية الدهمشية، واليوم نجد أن التركيبة العرقية لقرية ألار " متباينة جداً" ففيها الشايقية، الدناقلة، المحس، والذين توافدوا على المنطقة وعلى الولي ود حاج ليتعلموا منه أصول الدين ، ويوجد أيضاً الحسانية الدين بدأوا في الاستقرار على حواف القرية بعد الجفاف الشديد الذي ضرب مناطقهم منذ بداية الثمانينيات من القرن الماضي، وعلى الرغم من هذا التباين العرقي في قرية الار " إلا أننا نلمس الانسجام والوحدة في ثقافة القرية" فثقافة أهل القرية، ومع أنهم يتحدثون العربية إلا أن هناك العديد من المفردات والمصطلحات النوبية في حياتهم النوبية.

من خلال ما سبق يتضح أن ألار هو أقدم اسم للمنطقة ، وبما أنه يتطابق و الوصف الذي ذكره نستاسن عن مكان ميلاد الارا فهي بكل تأكيد قد سميت على الملك ألارا مؤسس الأسرة النبتية الحاكمة وقد أطلق عليها هذا الاسم على الأقل خلال أواخر فترة نبته تمجيداً لجدهم ألارا خاصة وإننا نعرف مدى التمجيد والتقديس الذي ضربه ملوك نبته على أنفسهم ، قد تحور الاسم لاحقاً إلى ألار. إذاً بما أن ألارا قد ولد بالمنطقة ودفن بالكرو،وهذا يقودنا إلى عدة حقائق، أولها أن منطقة ألار كانت واقعة على الأقل تحت سيطرة الزعماء الذين دفنوا في المقابر الباكرة في الكرو والذين كانت ثقافة كرمة وعاداتها النوبية معروفة عندهم،ومن المؤكد أن لهذه المنطقة أهميتها وإلا لما بسطوا سيطرتهم عليها،ولذلك الكرو أيضاً لها أهمية أخرى بخلاف أنها جبانة ملكية.

10 Hassan , Y.F.1967. Arabs and the Islam in the Sudan.Edinburgh.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المراجع :-

David.N &Kramer,C. 2001
Ethnoarchaeology in Action. Cambridge
Edwards,D.N.2004.
The Nubian Past: An Archaeology of the Sudan .London.
1989. Archaeology and Settlement in Upper Nubia in the First Millennium B.C. Cambridge
Eide,T.et.al.1996
Fontes Historiae Nubiorum Vol. II. Bergen
Hakem,A.M.A. 1988.
Meroitic Architecture : A background of an African civilization. Khartoum.
Hassan , Y.F.1967.
Arabs and the Islam in the Sudan. Edinburgh.
Kendall,T.1984.
Ethnoarchaeology in Meroitic Studies . Rome.
Reisner,G.A.1966
" Black Topped Pottery ". JARCE 5 pp.7-10
Török,L.1995
The Birth of an Ancient African Kingdom: Kush And Her Myth of the State in the First Millennium B.C. Lille

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

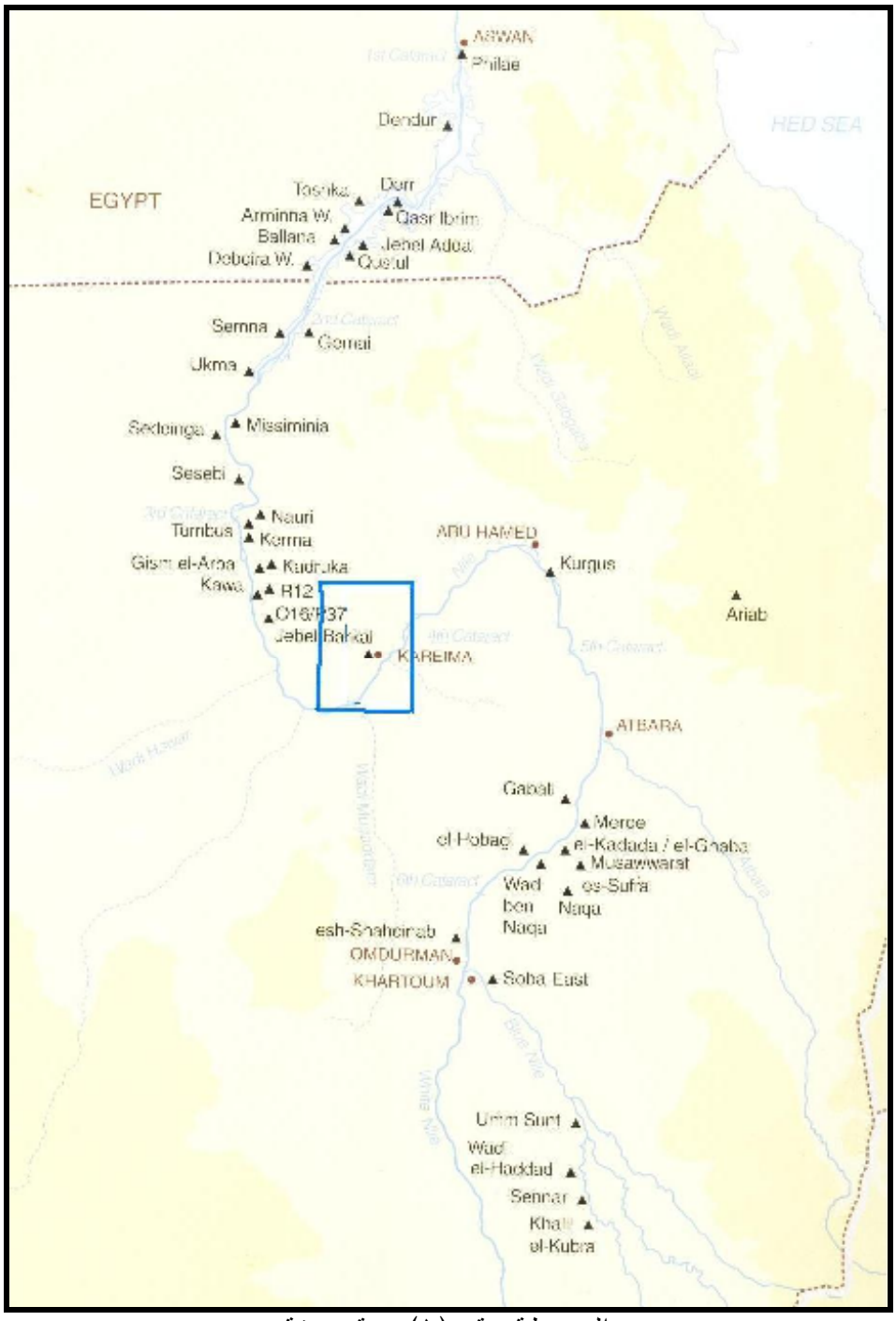

الخريطة رقم (١) موقع نبتة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

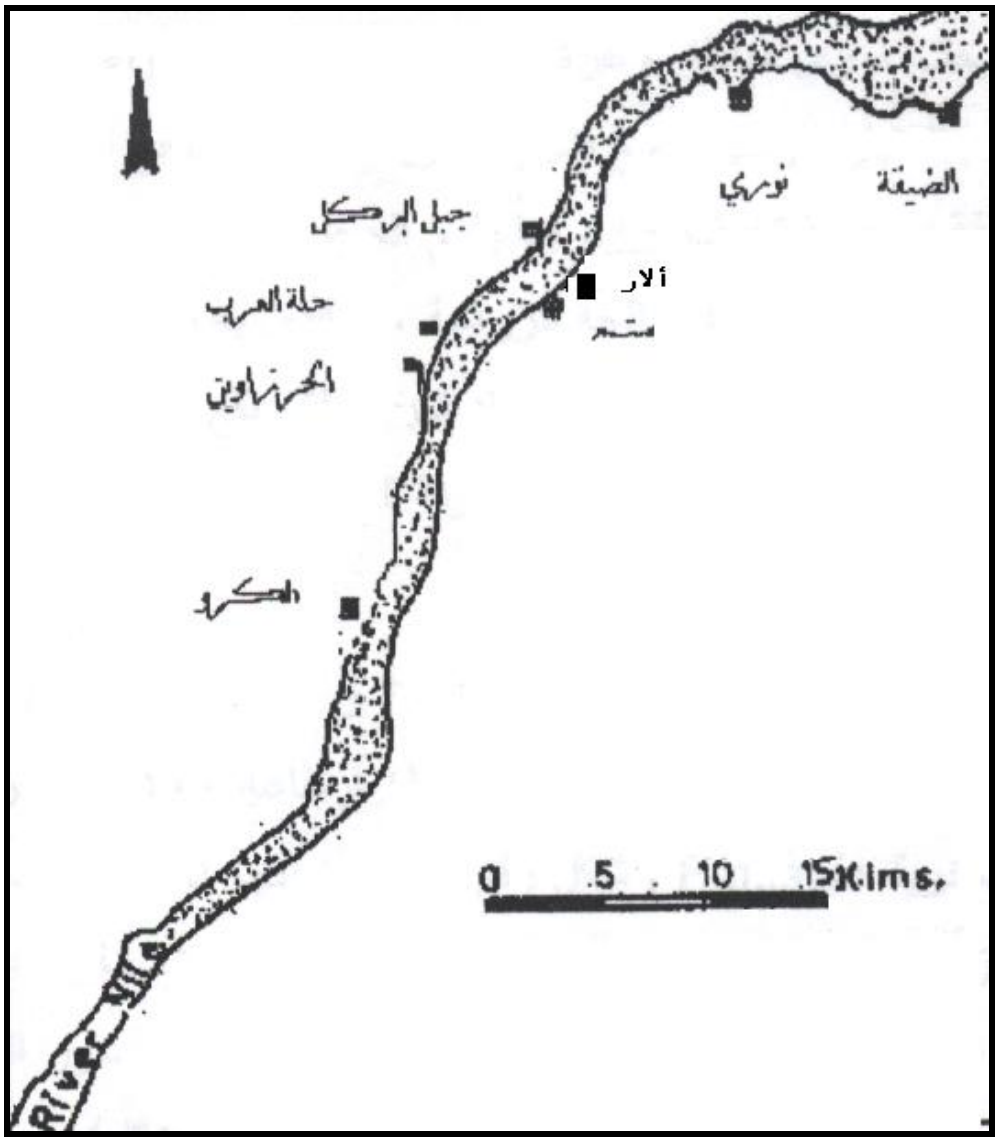

الخريطة رقم (٢) موقع اللار بالنسبة للمواقع النبتية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com